أحوال المجتمع الموريتاني في ظل النظام الإداري الفرنسي (١٩٠٣م-١٩٦٠م)

هشام يوسف ناصف محمد

مقدمة

لا يكتفي الاستعمار باحتلال الأرض واستعباد السكان فقط مهما تعددت أشكاله وصوره، بل يعمل على طمس الشخصية التاريخية للبلاد المحتلة وتغييرها إلى أسماء من عنده وأوضاع من صنعه ويجنسها تدريجيا حتى تتحول إلى حقيقة غير حقيقتها وشخصية غير شخصيتها.

ولكن هناك بعض الأمم لديها مناعة قوية ضد تلك الغايات الاستعمارية، فمهما بلغت جهود الدول الاستعمارية من محاولات إلا أنها تظل قوية، ولعل موريتانيا أصدق الأمثلة على ذلك.

ولقد كان الشعب الموريتاني يعيش في قبائل شبه مستقلة منذ الفتح الإسلامي حتى عهد قريب دائمة الترحال بحثا عن الماء والكلأ لرعي الماشية والإبل، ولم يعرف الموريتانيون حياة الحضر إلا منذ عهد قريب، وكانت القبائل الموريتانية دائمة النزاع فيما بينها، وكان البدو يعتبرون الحرب هي المهنة الحقيقية للرجل، ويلي الحرب مهنة الرعي وتربية الحيوانات، وكانوا يحتقرون الاستقرار والعمل الزراعي.

أسباب اختيار الفترة الزمنية

أما بالنسبة للفترة الزمنية للدراسة والتي تبدأ بعام ١٩٠٣م وهو بداية الاحتلال الفرنسى لموريتانيا لتبدأ فرنسا فرض سيطرتها فعليا على موريتانيا، وتنتهى الدراسة بعام ١٩٦٠م، وهو العام الذى حدث فيه الانفصال النهائى عن التنظيمات الفرنسية، وانتهى بإعلان استقلال موريتانيا رسميا عن فرنسا.

أسباب اختيار البحث

يلقي البحث الضوء عن أحول المجتمع الموريتاني في ظل النظام الإداري الفرنسي، وكيف شهد المجتمع الموريتاني تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية كبرى، وكيف انتقلت موريتانيا من مرحلة المجتمعات القبلية شبه المستقلة إلى مرحلة المجتمع الموريتاني المتكامل.

ولقد كان من أهم العوامل التى ساعدت على تكوين المجتمع الموريتاني المتكامل اهتمام المستعمر الفرنسي بالثروات المعدنية للبلاد وبإقامة مدن صناعية حول مناجم المعادن، وكان لذلك أكبر الأثر في تغيير وبناء المجتمع الموريتاني.

اهم مصادر البحث

أما عن أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث:

١- نصر السيد نصر: الجمهورية الإسلامية الموريتانية، دراسة مسحية شاملة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨م.

٢- الحسين يروح والي: نظام الحزب الواحد في موريتانيا: رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٧٩م.

٣- السيد ولد أباه: موريتانيا الثقافية والدولية والمجتمع، سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٤- محمد الراضي بن صدفن: السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (١٩٠٠– ١٩٦٩م)، بيروت، ١٩٨١م.

٥- صالح بكتاش: النزاع السنغالي الموريتاني بين المازق العرقي والمخرج الوطني الشعبي، دار المستقبل العربي ١٩٩٩م.

٦- Elkeihel (O.Mohamed El apd) Colonisation francaise et Mutations socials Mauritanie: cas de ieexclavage on milieu maure 1900– 1960, memo rie maitrise en his toire, Nouakshott 1986.

أحوال المجتمع الموريتانى فى ظل النظام الإدارى الفرنسى

إن الاستعمار مهما تعددت أشكاله وصوره لا يكتفي باحتلال الأرض واستعباد السكان بل يعمل على استبدال الشخصية التاريخية للبلاد المحتلة بأسماء من عنده وأوضاع من صنعه ثم يجنسها شيئا فشيئا حتى تتحول إلى حقيقة غير حقيقتها أو شخصية غير شخصيتها، فإذا تم لها ذلك تستولي عليها استيلاء كاملا أبديا فتصبح كأنها قطعة من أرضه لا يجد في أهلها من يبادله في مصيرها، إلا أن عند بعض الأمم مناعة قوية ضد تلك الغايات الاستعمارية فمهما بذلت الدولة المستعمرة من المحاولات واتخذت من الوسائط فإنها ستظل مهما قويت وطغت وبغت عاجزة عن بلوغ غاياتها، وموريتانيا أصدق مثال على ذلك[١].

عاش شعب موريتانيا منذ الفتح الإسلامي إلى عهد قريب في قبائل شبه مستقلة، وكانت مجتمعاتهم المحلية صغيرة الحجم تتمثل في الأحياء البدوية التي يتغير مكانها بحثا وراء الكلأ لرعي الإبل والماشية، وفي القرى الزراعية المؤقتة والدائمة، ولم يعرف الموريتانيون حياة الحضر إلا منذ عهد قريب، وكانت الحياة الفطرية والنزعة القبلية تغلب سلوكهم الاجتماعي والسياسي، وكانت القبائل الموريتانية دائمة النزاع فيما بينها، وكان البدو يعتبرون الحرب هي المهنة الحقيقية للرجل ويلي الحرب مهنة الرعي وتربية الحيوانات، وكانوا يحتقرون الاستقرار والعمل الزراعي[٢].

وكانت تلك حقيقة الواقع الموريتاني الذي استمر لمئات السنين فإنه بعد دخول الاستعمار الفرنسي واستمراره حوالي ستين عاما فقد شهد المجتمع الموريتاني تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية كبرى، ويمكن تلخيص التغير الاجتماعي في عبارة واحدة فنقول أن موريتانيا قد انتقلت من مرحلة المجتمعات القبلية شبه المستقلة إلى مرحلة المجتمع الموريتاني المتكامل.

---

(٢) عبد الباري عبد الرازق نجم: جمهورية موريتانيا الإسلامية، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٧٦.

(١) نصر السيد نصر: الجمهورية الإسلامية الموريتانية، دراسة مسحية شاملة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٤٦٩.

وكان من أهم العوامل التي ساعدت على تكوين المجتمع الموريتاني المتكامل اهتمام المستعمر الفرنسي بالثروات المعدنية للبلاد وبإقامة مدن صناعية حول مناجم المعادن، وكان لذلك أكبر الأثر في تغير وبناء المجتمع الموريتاني[١].

والظاهرة التي تلفت النظر بحق هي التغيرات الكبرى التي حدثت في البناء الاجتماعي للسكان، فإن التغيرات السكانية تبين أن غالبية الموريتانيين كانوا من البدو والرحل وقليل من السكان يعيشون على الزراعة وأقل القليل كانوا يسكنون المدن، وكان تواجد الاستعمار في موريتانيا أدى إلى أن يصبح المنظور القبلي لا يعبر عن الواقع الاجتماعي الجديد إذ حدذ اختلاط بين القبائل وحدثت هجرة داخلية هامة من البداية إلى القرى الزراعية وإلى المدن الحديثة، وأصبحت المراكز الحضرية الجديدة تتكون من مواطنين ينتمون إلى قبائل مختلفة وضعفت الالتزامات والتنظيمات القبلية وظهرت أبنية اجتماعية جديدة لم تكن موجودة من قبل، كما أصبح المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث يعبر عن الواقع الاجتماعي الجديد بصورة أوضح من الإطار القبلي.

ويمثل المجتمع التقليدي المجتمعات المحلية الضغيرة في الأحياء البدوية والقرى الزراعية، وهي مجتمعات لا تزال تتمسك ببعض النظم القبلية، ولكنها أيضا تكيفت مع التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الكبرى وأحدثت الكثير من التغيرات في بعض النظم القبلية والتي تمثل ثلاثة أرباع المجتمع الموريتاني، وأما المجتمع الحديث فيتكون من سكان المراكز الحضرية الذين تركوا (في سبيل التكيف مع نظام الدولة الحديثة) الكثير من النظم القبلية التقليدية[٢].

إلا أنه لا يجب النظر إلى المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث كواقعين اجتماعيين منفصلين أو متعارضين وإنما هما في الواقع في حالة تداخل وتشابك فإن سكان الحضر هم مهاجرون أتوا من البوادي والقرى الزراعية وقد حملوا معهم ثقافتهم التقليدية ولكنهم يضطرون لترك الكثير من عناصر ثقافة المدينة، وفي ضوء هذا الإطار أصبح المجتمع الموريتاني بعد دخول المستعمر الفرنسي ينقسم إلى قسمين

---

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٤٧.

(١) محمد يوسف مقلد: مرجع سابق، ص ١٧.

أساسيين: المجتمع التقليدي في البوادي والقرى الزراعية، والمجتمع الحديث في المدن الموريتانية، إلا أن هذا التقسيم البنائي والوظيفي للمجتمع الموريتاني لا يؤثر في الوحدة التكاملية للمجتمع الموريتاني.

ولقد كان للمجتمع الموريتاني ركائز قوية يقوم عليها والمقصود بالركائز هنا العوامل الاجتماعية الموحدة للشعب الموريتاني فإنه بالرغم من التقسيمات القبيلة للسكان فإن هناك من الركائز القوية ما جمع القبائل في وحدة مجتمعة شاملة، ولا أدل على فاعلية تلك الركائز من فشل المحاولات الاستعمارية المستمرة الخاصة بتحويل السكان عن الإسلام إلى المسيحية أو عن العربية إلى الفرنسية والخاصة بفصل الوحدة الوطنية والانقسام إلى دويلات مستقلة، لقد باءت تلك المحاولات الاستعمارية الفرنسية بالفشل في موريتانيا[١].

وفي الحقيقة يرجع هذا الفشل في موريتانيا إلى وجود ركائز قوية يقوم عليها المجتمع الموريتاني، وهي من القوة بحيث صمدت أمام دولة كبيرة مثل فرنسا التي احتلت موريتانيا أكثر من نصف قرن، وأهم تلك الركائز الإسلام واللغة العربية والعادات والتقاليد .

أما عن الإسلام فإن غالبية سكان موريتانيا يدينون بالإسلام ويتبعون المذهب المالكي وتخصصت قبائل الزوايا في دراسة العلوم الإسلامية، وفي نشر الإسلام في المناطق الأفريقية المجاورة، كما أن كثيرا من قبائل الزوايا قد تبنت إما الطريق القادرية أو الطريقة التيجانية، ولقد طبعت التقاليد المحلية والبيئة الموريتانية تلك الطرق بخصائص معينة مما جعل الطرق الصوفية الموريتانية تختلف عن الطرق الصوفية المشابهة التي ظهرت في مصر والعراق، والأمر الذي لا شك فيه أن الإسلام هو الركيزة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الموريتاني، ولا أدل على ذلك من الاسم الرسمي للدولة وهو الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وتعد الوحدة الدينية من أقوى ركائز وحدة المجتمع الإنساني.

---

(١) الحسين يروح والي: نظام الحزب الواحد في موريتانيا: رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٤.

وبالنسبة للغة العربية التي تعد هي اللغة الوطنية، وهي أداة التخاطب والكتابة والثقافة، ويتحدث الموريتانيون اللغة العربية من خلال لهجة خاصة بهم تسمى اللهجة الحسانية، وقد انتشرت اللغة العربية في موريتانيا منذ القرن الرابع عشر الميلادي، عندما انتشر حكم وسيطرة بني حسان العرب في البلاد، وقد تعرضت اللغة العربية في موريتانيا لعقبتين: العقبة الأولى هي محاولات الاستعمار الفرنسي لفرنسة الموريتانيين عن طريق فرنسة التعليم في المدارس الرسمية التي أقاموها، وكذلك عن طريق فرنسة الإدارة الحكومية، أما العقبة الثانية فتتمثل في وجود لغات شعبية غير مكتوبة تتكلم بها القبائل الزنجية في الجنوب(١).

لم تنجح السياسة الفرنسية الاجتماعية حيث تمسك الموريتانيون بدينهم الإسلامي، ولم تستطع النشاطات التنصيرية أن تدخل عليهم دينا آخر، ولم تبنى في موريتانيا كنيسة، ولا صومعة طيلة فترة الاحتلال الفرنسي لموريتانيا.

وأما عن العادات والتقاليد فمن الواضح أن التنظيمات القبلية تختلف في ثقافتها، ومن أهم عناصر الثقافة اللغة والعادات والتقاليد، وتبين من البحث أن العلاقة بين اللغة العربية واللغات الشعبية في موريتانيا هي علاقة تكاملية، أما فيما يتعلق بالوظيفة الانقسامية لاختلاف العادات والتقاليد القبلية فقد ضعفت لوجود مجموعة من العادات والتقاليد ترجع في معظمها إلى الثقافة العربية التي يحملها البيضان فبالإضافة إلى كون البيضان هم غالبية السكان (٨٠%) فهم حكام هذه البلاد وساداتها منذ مئات السنين، وهم يحملون الثقافة العربية بقيمتها الحضارية العالية بمقارنتها بالثقافات القبلية البدائية.

ويرى الباحث أنه من الخطأ المبين أن يفهم مما سبق أن الثقافة العربية في موريتانيا لم تتأثر بثقافات القبائل الزنجية، لقد تأثرت الثقافة العربية فعلا ولكن تأثيرها في ثقافات تلك القبائل أعظم وأقوى، لقد كان من النتائج التي ترتبت على دخول الاستعمار ما نجم عنه من الأضرار المعنوية مثل تفتيت بنية المجتمع وإثارة نعرات الأحقاد بينه وهو ما سعى إليه المستعمر بالفعل والتشكيك في مكوناته.

---

(١) السيد ولد أباه: موريتانيا الثقافية والدولية والمجتمع، سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ٨٥.

إن سجل المقاومة في موريتانيا لم يقتصر على الجانب العسكري فقط بل شمل مختلف نواحي الحياة فقد كانت هناك مقاومة اجتماعية برفض الأهالي مختلف علاقات الزواج بينهم وبين الفرنسيين(١).

وإذا كانت الأزمة الاقتصادية التي عرفتها البلاد الموريتانية خلال الحرب العالمية الثانية قد أثرت في المستوى المعيشي للسكان فإنها كذلك قد أدت إلى مضاعفات اجتماعية، وهو ما يبدو جليا من خلال تطور بعض العقليات الذي لوحظ خلال الأربعينات في بعض الأوساط الاجتماعية.

ولقد ظهرت بعض التوجهات الجديدة في الأوساط الاجتماعية مخالفة لطبيعة النظام التقليدي وانتشار ظاهرة العمل بالراتب وإقبال السكان على الوظائف العصرية، إضافة إلى الاضطرابات الحاصلة من الوضع التقليدي المتمثلة في ممارسة بني حسان للزراعة، وقطع العبيد علاقات تبعيتهم مع أسيادهم، وعدم التزام طبقة الموالي بدفع مستحقاتهم التقليدية إزاء القبائل التي كانت تحميها في السابق، وهجرة الأيدي العاملة من الريف إلى المدن وغيرها، وهو ما سيشكل مظهرا من مظاهر التطور في أنماط معيشة هؤلاء السكان، وقد جاء في أحد تقارير بعض حكام الدوائر الموريتانية ملاحظات توضح تطور عقليات الشباب في دائرته، هؤلاء الشباب الذين يرى حاكم الدائرة الفرنسي أن أكثرهم يقضي فترة الصيف في السنغال، وذلك في سبيل الحصول على وظيفة في المدن والمراكز الكبرى، وعند عودة هؤلاء إلى مواطنهم الأصلية فإنهم يبدون رغبتهم في التخلي عن عاداتهم التقليدية حيث لم يعودوا يخضعون لـــتأثير وجهاء القرية ولا لأوامر رؤسائهم التقليديين كما أنهم يرفضون نهائيا الالتزام بدفع مستحقاتهم الضريبية، وهو ما يشكل في الواقع تطورا في العادات المحلية يستدعي إمعان النظر على حد تعبير حاكم الدائرة (٢).

---

(٢) السيد ولد أباه: نفس المرجع السابق، ونفس الصفحة.

* هي أزمة اقتصادية عرفتها البلاد الموريتانية خلال الحرب العالمية الثانية وقد أثرت في المستوى المعيشي للسكان وقد أدت إلى مضاعفات اجتماعية، وهو ما يبدو جليا من خلال تطور بعض العقليات الذي لوحظ خلال الأربعينات في بعض الأوساط الاجتماعية.

(١) – A. N. M.Serie E2/Dossier 116 Cirse de 1943 a Atar et som impact sur leevolution 1 de la Societe dans Rapport A drar 1943.

وفي نفس السنة كتب حاكم دائرة أدرار يقول في هذا الخصوص في تقرير موجه إلى حاكم أقاليم موريتانيا ما نصه " إن نظام المحاربين والاتباع ذوي الصبغة الاقطاعية محكوم عليه بالانقراض إن عاجلا أو آجلا، والمسألة بالنسبة لنا هي مسألة وقت لأن أي تغيير مفاجئ قد يؤدي إلى صراعات اجتماعية ".

ومع ذلك فإننا نعتقد أن أي تطور اجتماعي بطئ ينبغي أن يقع في ظل السيطرة الفرنسية، ولكن في اتجاه مساواة في الحقوق بعيدة المدى بين القبائل وحتى بين الأفراد، وهذا التطور سيحصل بصفة فعلية أولا عن طريق ممارسة بني حسان للأنشطة الزراعية، وسيتدعم ثانيا بظهور عمال الراتب المأجورين من طرف الإدارة الفرنسية مثل الكوميونات وعمال الورشات العمومية الذين يستفيدون من خدمة الجهاز الاستعماري، وفي هذا الإطار دائما يقول حاكم دائرة أدرار " وصلت خلال هذه السنة أي سنة ١٩٣٩م فئات كثيرة من سكان الأرياف إلى أطار وذلك بحثا عن العمل بالراتب، كما قطع الكثير من العبيد علاقاتهم مع أسيادهم وتحرروا من العبودية تلقائيا.

ولقد كان رؤساء القبائل يرون هذه الوضعية الجديدة منافية لمصالحهم على الرغم من اعترافهم بايجابيات الطريق الاستعمارية التي قضت على عمليات السلب والنهب ووفرت الأمن والحماية للمواطنين على حد زعمهم، وهنا يلاحظ أن بني حسان الذين كانوا يأنفون من ممارسة الزراعة أصبحوا بالفعل يتعاطون هذا النشاط بصفة متزايدة.

ويرى الباحث أن طبقة الموالي كانت تميل إلى التحرر من هيمنة بني حسان بحكم أن هذه الفئة العسكرية من المجتمع لم تعد قادرة على توفير الحماية للفئات التابعة لها، وهذا ما أدى إلى اختفاء ضريبة الحرمة التي كانت أصدق تعبير عن هذه الحماية، وتفاديا لقيام تصادم بين الطرفين أي بين بني حسان وأتباعها، ولقد قامت الإدارة الفرنسية بتشجيع الفئات التابعة على شراء هذه الحرمة من بني حسان نهائيا وهو ما يعرف بالفداء.

---

* الحراطين: هم فئة دخيلة جئ بهم كعبيد من الدول الأفريقية المجاورة، حينما كانت تكثر تجارة العبيد، وهم أناس لهم بشرة سوداء، ويتصفون بصفات مورفولوجية خاصة متميزة عن الآخرين من الشرفاء والمرابطين والعرب، المصدر: http://www.hadaik.com/vb/showthread.php?t=5104

ولقد أحدثت أزمة ١٩٤٣م* في أدرار تحولا اجتماعيا كبيرا لاحظه الإداري الفرنسي المقيم بأطار الذي كتب يقول في تقريره السنوي إلى حاكم موريتانيا " لقد تأثرت الزوايا من وضعية الأزمة، كما تأثرت الفئات الحسانية التي تم إفقارها، وفقد بالتالي النظام الطبقي القديم من بني حسان الموالي لفرنسا جزء كبير من دلالته، حيث لم تعد أهمية القبيلة ولا قيمتها تستمد من هذا النظام، وهو أمر يشير إلى الاختفاء التدريجي للتبعية الاجتماعية، وظهور سلم اجتماعي جديد على أساس الثروة(١).

وقد بدأت بوادر هذا التحول تظهر كذلك في جرجول قول سنة ١٩٤٤م، وهو ما أرجعه المقيم الفرنسي في الدائرة في تقريره السنوي إلى تقبل العقلية الموريتانية للمساواة وإلى طبيعة المناخ ونمط العيش المسئولين عن إحداث عدم توازن ديموغرافي بين الموريتانيين البيضان الرحل الذين يمتازون بمعدل منخفض من الإنجاب وفئة الحراطين* التي تمتاز بمعدل مرتفع من الإنجاب، وفي سياق الحديث عن طبيعة الوضعية الجديدة يشير حاكم الدائرة في تقريره السنوي سنة ١٩٤٤م.

إلى أن الموريتاني بطبعه يفضل حياة الترحال وراء قطعان الماشية، ويفضل كذلك أن يعيش في العزلة مع مواليه الذين يستخدمهم في التنمية الحيوانية، وهو مايشكل النموذج المثالي لحياة البدوي، وفي الغالب يتجمع كل الحراطين الذين ينتمون إلى القبيلة الواحدة أو العشيرة الواحدة في شكل تجمعات بشرية يطلق عليها محليا (أدواب)، ويستقر هؤلاء عادة بالقرب من أراضيهم الزراعية أي الأراضي التابعة للقبيلة التي ينتمون إليها ويمارسون زراعة هذه الأراضي مقابل حقوق ثابتة تدفع لأصحاب الأرض وتقدر بـــــــــــــــــــ ١٠% مضافة على ما يدفعونه لتسديد مستحقاتهم الضريبية وما يتحملون في مشاركاتهم في أعباء القبيلة، وهؤلاء الحراطين لا يزالون يعترفون بالروابط القديمة التي تربطهم بأسيادهم الذين هم من وجهة نظرهم المدافعون عن حقوقهم وحمايتهم من الناحية الروحية، ورغم ذلك يبدو من الواضح أن جميع الروابط بين مختلف الطبقات الاجتماعية قد بدأت في التلاشي لأن أكثرية هؤلاء الحراطين أصبحت تميل إلى التحرر من التبعية للأسياد، ولم يعد اعترافهم بالروابط

(١) A. N. M.Serie E2/Dossier 107 Relations maures et H ara tines, dans Rapport Brakna 1943.

التاريخية التي كانت تربطهم بهؤلاء الأسياد أكثر من روابط صورية، وأصبحوا في الواقع يفضلون العيش بمعزل عن الأسياد(١).

وفي البراكنة لم يعد الحراطين يرون من الضروري دفع الضرائب التقليدية إلى أسيادهم القدامى من البيضان الذين كانوا يوفرون لهم الحماية، ولم تتدخل الإدارة الفرنسية لتسوية المشكلة لأن التدخل فيها – على حد تعبير المقيم العام في البراكنة – قد يؤدي إلى مضاعفات خطيرة على مستوى النظام الاقتصادي والاجتماعي المعتمد في البلاد الموريتانية، ولذلك تركت هذه المسألة على أن تتم تسويتها بصفة تقليدية انطلاقا من التقاليد المتعارف عليها، ومن جهة أخرى فقد تحول بني حسان تدريجيا إلى مزارعين في العديد من مناطق البلاد، منهم على سبيل المثال أولاد السيد الذين أصبحوا يمتلكون أراضي زراعية بمحاذاة شمامة، وكذلك أولاد أحمد الذين أصبحوا يملكون أراضي مماثلة في شقار وأكريمي، ثم أولاد نغماش الذين يمارسون نفس النشاط الزراعي في قيمي.

ومن الملاحظ أن بني حسان والحراطين يمارسون النشاطات الزراعية في كل هذه المواقع جنبا إلى جنب على حد سواء، وقد شجعت الإدارة الفرنسية هذا التوجه نحو ممارسة الزراعة بالنسبة لبني حسان لأن الارتباط بهذا النشاط يربط الإنسان بأرضه، وينسيه التعلق بالسلب والنهب وركوب المخاطر كما يقول المقيم الفرنسي في البراكنة(٢).

وقد صاحبت هذا التحول في نمط معيشة سكان البراكنة خلال سنة ١٩٤٤م ظاهرة نزوح السكان من الريف إلى المدن والتي لوحظت أساسا في صفوف السكان السود، هؤلاء السكان الذين كانوا يهاجرون خلال فترات الأزمة باستمرار، فمثلا في سنة ١٩٤٣م هاجر جمهور كبير من الحراطين والعبيد من البراكنة واستقر هذا الجمع بصفة نهائية في منطقة جرجول، وهي ظاهرة لوحظت منذ العشرينيات، ففي سنة ١٩٢٥م كتب المقيم العام بتجقجة رسالة إلى المقيم العام بدائرة كيفة يطالبه فيها على

---

(١) A. N. M.Serie E2/Dossier 114 Compte Rendu de Tournee du Commandant Cercle Assapa dans Ta Region Pe K iffa et Aft out 5F evrier 1935.

(٢) A. N. M.Serie E2/Dossier 107 Evoution des populations Maures dans Rapport Brakna 1944.

إرسال كل العبيد والحراطين المتواجدين بصفة غير شرعية في أمبوت إلى تقانت التي هي موطنهم الرسمي.

وقد وجهت رسائل مماثلة إلى حكام دوائر جرجول وغيرها بهذا الخصوص، وقد كان لهجرة هذه اليد العاملة كبير الأثر على تقانت التي بقيت تعاني ن نقص كبير في الأيدي العاملة، وهو ما انعكس على الإنتاج الزراعي على مستوى الدائرة، ففي سنة ١٩٣٥م كانت أغلبية سكان العصابة تشكو من هجرة الأيدي العاملة في الفلاحة للأراضي الزراعية الموجودة في الدائرة إلى الدوائر المجاورة، وذلك بغرض ممارسة الزراعة بصفة سرية في أراضي تمتلكها قبائل ومجموعات لا تربطهم بها أية صلة، وهذه الوضعية كانت مناسبة لقيام نزاعات حادة بين سكان هذه الدوائر التي يحاول كل طرف منهم الاحتفاظ بهذه الأيدي العاملة على حساب الآخر.

ويرى الباحث أن الأسباب الكامنة وراء هجرة هؤلاء المزارعين تتمثل علاوة على تهربهم من دفع الضريبة في رغبتهم في التخلص من الأسياد، وسعيا إلى وضع حد لهذه الهجرة غير المشروعة قرر كل من حاكم دائرة جرجول قول والمقيم الفرنسي بكيفة فرض عقوبات على شكل غرامات مالية على كل المزارعين الذين يقطنون أراضي زراعية غير الأراضي التي تنتمي إلى مناطقهم الإدارية التي تم احصاؤهم فيها(١).

ويمكن أن نفسر هذه الوضعية بالنظر إلى التزايد الملحوظ في أجور الأيدي العاملة وهو ما جعل الحراطين يهجرون تلقائيا الأسياد لأن هؤلاء الأخيرين لم يعد بمقدورهم توفير الوسائل الكافية لضمان ظروف حياة مواتية بالنسبة للحراطين الذين يرتبطون بهم، وهو ما كان يدفع الحراطين إلى التواجد بكثافة عالية في ورشات الأعمال العمومية التابعة للإدارة حيث الأجور مرتفعة خلافا لما هو الحال في ممارساتهم لأعمال أخرى في القطاع التقليدي كالزراعة وتربية الماشية مثلا.

وهذه المسألة كانت لها انعكاسات على الإنتاج الزراعي نتيجة لانعدام الأيدي العاملة وخاصة بالنسبة لملاك النخيل الذين شكوا المقيم الفرنسي بكيفة هذه الوضعية سنة

---

(١) محمد الراضي بن صدفن: السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (١٩٠٠– ١٩٦٩م)، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٨١.

١٩٤٨م، ولم تكن منطقة الحوضين بمعزل عن هذه التحولات حيث تمت عملية قطع علاقات التبعية بشكل بطئ نسبيا، وذلك بالنسبة للعبيد.

وفي هذا الإطار فإن العبد يتحول بصف إرادية إلى مزارع ويستقر إلى جانب أحد السدود الزراعية لممارسة الزراعة بصفة ثابتة ودائمة، وفي حالة ما إذا كان السيد يتحلى بشئ من المرونة مع هذا العبد بحيث يتجنب استخدام العنف ضده بعدم الإقدام على انتزاع زوجته أو أحد أبنائه لغرض حراسة مواشي السيد، وفي حالة مساعدة هذا الأخير للعبد ببعض المواشي ينتفع بلبنها خلال السنة فإن الروابط بينهما قد لا تنقطع وبالمقابل يدفع العبد إلى سيده كل سنة جزء من نصابه في إنتاجه الزراعي، وخلافا لهذه الصيغة حدثت مشاكل بمقاطعة تامشقط بين الأسياد وأتباعهم من العبيد والمتسبب الأول في هذه المشاكل ليس العبيد بل السادة ذلك أن هؤلاء الأخيرين يريدون ممارسة نفس الحقوق التي كانوا يتمتعون بها على عبيدهم كما في السابق، وبالتالي فإنه كثيرا ما يقدم أحدهم شكايته للمقيم الإداري بالمقاطعة بهذا الخصوص وغالبا ما لا تجد المسألة حلا نهائيا وبالتالي يقطع العبد كل صلة له بالسيد(١).

ونتيجة لهذه الحالة بذل حاكم دائرة العيون دورا كبيرا في إقناع الأسياد بتحمل تضحيات كبيرة وذلك بالتخلي عن مطاردة عبيدهم حفاظا على الأيدي العاملة الضرورية للتنمية، وللحيلولة دون هجرة المزارعين قامت الإدارة الفرنسية في الحوض الغربي بتطبيق سياسة غذائية تتمثل في مضاعفة الآبار والسدود، ورغم كل هذه الجهود الحثيثة من طرف الإدارة لمعالجة مشاكل العبيد والأسياد فإن ذلك لم يمنع الحراطين من الهجرة نحو الجنوب بحثا عن الأراضي الصالحة للزراعة خاصة في المناطق الحدودية المتاخمة للسودان الفرنسي حيث سيقطعون الروابط الأخيرة التي تربطهم بالأسياد وهو ما أحدث انعكاسات خطيرة على مستوى دائرة العيون كما ذكر حاكم الدائرة فقد تم هجر الأراضي الصالحة للزراعة وتقلص بالتالي الإنتاج الزراعي مما أدي إلى ظهور نقص في الغذاء، وهذه الظروف كانت مناسبة لقيام

(١) A. N. M.Serie E2/Dossier 106, Emigrations de la Maied œuvre servile, dans Rapport 1 cercle Aioun El attrouss pour, Ieannee 1950.

ردود فعل من طرف الأهالي الذين كانوا يحاولون بشتى الوسائل استرجاع عبيدهم من السودان(١).

ولقد كانت هجرة العبيد تطرح مشكلة بالنسبة للإدارة الفرنسية منذ ١٩٤٥م، ففي ١٠ يوليو من نفس السنة تعرض حاكم دائرة العيون في تقريره السنوي لهذه المسألة، حيث أورد في التقرير ما نصه: " إن قرى مالي تأوي الكثير من الحراطين المهاجرين الذين استقروا نهائيا هناك لمزاولتهم للأنشطة الزراعية، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الحراطين الذين هاجروا تلقائيا أعداد أخرى من العبيد ساهمت الإدارة الفرنسية في تحريرهم، وأصبحوا يبحثون عن مصدر رزق جديد، وفئات أخرى من العبيد غادرت أسيادها لأنهم عجزوا عن توفيرهم المصادر الضرورية للبقاء، ولكي تواجه الإدارة الفرنسية هذه المشكلة ساعدت بني حسان أصحاب المكانة الاجتماعية الكبيرة إلى إعادة طبقات الحراطين إليهم ليعملوا في الأعمال التقليدية كالزراعة والرعي، أما بالنسبة للأسياد الذين لا يتمتعون بتأثير مماثل فإنهم يكتفون بتنظيم زيارات دورية إلى عبيدهم وخاصة في فترات الحصاد للحصول على بعض الهدايا من طرفهم(٢).

ولقد عبر رؤساء القبائل الموريتانية عن استيائهم إزاء القطيعة التي وقعت بين الأسياد والحراطين خاصة وأنهم يرون أن هؤلاء الأخرين يمثلون المصدر الوحيد للإنتاج، وقد تم إحصاء هؤلاء الحراطين في القرى السودانية، وهم يشكلون نسبة كبيرة من سكان هذه القرى، وقد أعلن هؤلاء الأسياد عن استعدادهم الكامل للالتحاق بالحراطين المذكورين والاستقرار معهم في حالة ما إذا كانت الإدارة الفرنسية عاجزة عن إعادتهم إلى أماكنهم الأصلية، وهذه المسألة بالذات كانت تشغل بال الحاكم العام لغرب أفريقيا الذي كتب في هذا الخصوص إلى حاكم موريتانيا مخاطبا إياه بخصوص أن الوقت غير مناسب لإجراء أي تغيير على العادات البيضانية خاصة فيما يتعلق بعلاقة

---

(٢) Elkeihel (O.Mohamed El apd) Colonisation francaise et Mutations socials Mauritanie: cas de ieexclavage on milieu maure 1900- 1960, memo rie maitrise en his toire, Nouakshott 1986, P, 58

(١) ظاهرة أدوابة: عبارة عن تجمع كبير من العبيد والحراطين الذين قطعوا علاقاتهم بأسيادهم، وأصبحوا يزاولون النشاط الزراعي بصفة مستقلة، وقد شجعت فرنسا هذه الظاهرة، محمد الراضي بن صدفن: مرجع سابق، ص ١٨٢.

الأسياد بالحراطين،وقد وقف من هذه القضية موقفا حياديا على اعتبار أن الإدارة الفرنسية لم تستطع حتى الساعة أن تأخذ موقفا بخصوصها لأن الظروف لم تعد مواتيه بعد، وأن أي عملية تستهدف تحرير العبيد بصفة مفاجئة ستؤدي حتما إلى قطيعة المجتمع البيضاني على حد قولهم، هذا مع العلم أن عدد العبيد كان في تناقص كبير لأنهم كانوا في الغالب يفرون من أسيادهم إلى المدن إضافة إلى ظاهرة أدوابة(١).

وفي تقانت كان أغلب الأسياد يوافقون على مبدأ تحرير كل الأولاد الذكور من أبناء خدمهم وذلك من أجل الحفاظ على روابط متينة مستقبلية بين الحراطين والأسياد، وفي حالة البلاد فقد تطورت وضعية العبيد والأتباع من تجاوزات الأسياد هذا في حين حافظت إينشيري على العبودية لأن موقعها كان بمثابة مأوى بالنسبة لقبائل الشمال التي حاربت الفرنسيين، بينما كان حاكم إينشيري يرى استمرار العبودية حيث لم تكن لديه موارد اقتصادية ولا توجد ضرائب، وبدون العبيد لا توجد تنمية حيوانية على حد تعبيره.

ومهما يكن من أمر فإنه على الرغم من مساعدة الظروف الاستعمارية للتحسين من وضعية العبيد فإن هؤلاء الأخرين قد ساهموا بدورهم في عملية تحرير أنفسهم مساهمة فعالة سواء كان ذلك بالطرق التقليدية المتعارف عليها أي بواسطة العتق، أو سواء اتخذت تلك الحرية شكل هجرة العبد إلى أماكن بعيدة عن موطنه الأصلي وقطع علاقته مع أسياده، وهذا التلاشي في علاقات التبعية قد لاحظه جان بيريه J. Peyrie (أحد الإداريين الفرنسيين والذي كان يشغل منصب حاكم موريتانيا) وأرجعه إلى الاجراءات الإدارية الفرنسية التي تسببت إحداث تغيرات في الظروف الحياتية للموريتانيين لأنها أقرت على حد قوله الحرية الفردية للشخص (أي حرية التنقل وحرية الملكية وضمان الأمن بالنسبة للأشخاص والممتلكات)، وهذا المناخ الجديد حسب قول جان بيريه هو المسئول عن اتخاذ الأتباع كل الوسائل الضرورية للتحرر من هيمنة حماتهم التقليديين، ولما تخلى اتباع الزوايا عن دفع التزاماتهم تجاه حماتهم الروحيين.

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٨٣.

ولم يكن بوسع الزوايا وبني حسان مقاومة هذه الوضعية واتجه الكثير منهم إلى ممارسة بعض المهن التي كانوا يأنفونها في السابق مثل ممارسة بعض الزوايا لجني العلك، واستغلال الملح للأغراض التجارية، وكذا ممارسة بني حسان للأنشطة الزراعية، وقد حدث ذلك في وقت تكثفت فيه هجرة العبيد من موريتانيا إلى السنغال وقطع علاقاتهم مع الأسياد واحتماء البعض الآخر منهم بالمراكز الإدارية بالمستعمرة، ولم تقتصر هذه الهجرة على العبيد وحدهم بل شملت الموريتانيين البيضان الذين كانوا يهاجرون وقتها إلى السنغال وإلى مستعمرات أفريقيا الغربية الفرنسية الأخرى[١].

---

[١] البيمارستان : (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى (مريض) أو عليل و (ستان) بمعنى (مكان) أو دار المرضى، ابن منظور (ابى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقى المصرى ت ٧١١ هـ / ١٣١١م) : لسان العرب، دار صادر – بيروت ١٩٩٢، ط١، ج٦، ص ٢١٧، والمارستان هو بيت المررضى وأن الملك مناقيوش ابن اشمون أحد ملوك القبط الأول لأرض مصر أول من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى وأودع بها العقاقير ورتب فيها الأطباء وأجرى عليهم ما يسعهم والملك مناقيوش هو الذى بنى مدينة أخميم ومدينة سنترية، المقريزى (تقى الدين أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م): المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم، ومديحة الشرقاوى، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٨م، ج٣، ص٥٤٥. أحمد عيسي بك: تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، دار الرائد العربى، بيروت ١٩٨١، ط٢، ص٤، إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، مطبعة الدار للنشر، دار الدعوه (د. ت) ج١، ص ١٦٦ .

مصادر البحث

١- محمد يوسف مقلد: موريتانيا الحديثة، غابرها، حاضرها، (العرب البيض في أفريقيا السوداء) ، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٠م.
٢- عبد الباري عبد الرازق نجم: جمهورية موريتانيا الإسلامية، بيروت، ١٩٦٦م.
٣- نصر السيد نصر: الجمهورية الإسلامية الموريتانية، دراسة مسحية شاملة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨م.
٤- الحسين يروح والي: نظام الحزب الواحد في موريتانيا: رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٧٩م.
٥- السيد ولد أباه: موريتانيا الثقافية والدولية والمجتمع، سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
٦- محمد الراضي بن صدفن: السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (١٩٠٠– ١٩٦٩م)، بيروت، ١٩٨١م.
٧- علي بدوي علي سالمان: الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا (١٩٠٣م– ١٩٦٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م.
٨- صالح بكتاش: النزاع السنغالي الموريتاني بين المازق العرقي والمخرج الوطني الشعبي، دار المستقبل العربي ١٩٩٩م.

٩- Elkeihel (O.Mohamed El apd) Colonisation francaise et Mutations socials Mauritanie: cas de ieexclavage on milieu maure 1900– 1960, memo rie maitrise en his toire, Nouakshott 1986.

١٠- A. N. M.Serie E2/Dossier 116 Cirse de 1943 a Atar et som impact sur – leevolution 1 de la Societe dans Rapport A drar 1943.